وزارة الارشاد القومى
مصلحة الاستعلامات

ذكرى
العارف بالله
المرسى أبى العبّاس

حول الاحتفال بذكرى المرسى أبى العباس

بقلم : محمد حمدى عاشور

تاريخ الاسكندرية حافل بالأحداث ، عامر بأعلام الفكر والنضال، الذين لهم شهرتهم الواسعة ، فى مختلف العصور ، وقد زخرت المكتبة العربية بتراث ضخم تفخر به الاسكندرية فى جميع المجالات ولا سيما فى العصر الاسلامى ، حتى اذا قام زائر بجولة فى أرجاء المدينة ، طالعته المساجد بمآذنها العالية ، والأضرحة بقبابها المستديرة ، تشير الى ذكريات ومعالم مرت عليها مئات السنين .

ومن ذلك مسجد أبى العباس المرسى القائم بهذا الحى القديم من أحياء الاسكندرية ، ومن حوله الجوامع والمآذن والقباب تحيط بميدان المساجد وتشرف على الميناء الشرقى .

كان لصاحب هذا المسجد فى الاسكندرية منذ ٧٠٠ سنة ، آثار باقية على الزمان ، حفظتها لنا الكتب قديما وحديثا ، وصانتها من الضياع ، وكان من حقها علينا أن نتصفحها ونستفيد منها ابقاء على أمجاد الماضى .. ووفاء منا لاصحاب كل عمل مجيد .

وكان أهل الاسكندرية يتطلعون فى لهفة وشوق الى الاحتفال بذكرى أبى العباس ، فسنحت لهم الفرصة فى هذا اليوم الذى مضى عليه الآن سبعة قرون من وفاته ، وأخذت الطوائف والهيئات ينافس بعضها بعضا ، فى أداء ما يجب عليها نحو عالم الاسكندرية الذى تخرج على يديه المئات من المواطنين فى المعرفة والأخلاق .

وكان على المحافظة أن تقوم بتنسيق هـذه الجهود ، وتوحيد الاتجاهات المختلفة ، على أساس من التعاون ، من أجل الهـدف المشترك ، تاركة للطوائف والهيئات حرية التعبير عن مشـاعرها بعيدا عن الاوامر والرسميات .

وكان من الضرورى ان يعرف المواطنون فى هذا الجيل : من هو أبو العباس المرسى ؟ وما مكانته فى العالم العربى والاسلامى ؟ وما مدى تأثيره فى معاصريه بالاسكندرية وغيرها ؟ وما قيمة هـذا التراث بالنسبة لمقاييس الثقافات الحديثة ودعم القـومية العـربية التى يحمل رايتها ، قائد ثورتنا ، ورائد نهضتنا الرئيس جمال عبد الناصر

وفقنا الله الى السير على هداه فى طريق الحرية والسلام ، من أجل غد مشرق بالامال ، ومن أجل العزة والسيادة الكاملة للشعوب العربية والاسلامية من الخليج الى المحيط . والله ولى التوفيق .

الإمام أبى العبّاس المرسى

كان مولده رضى الله عنه فى « مرسيه » سنة ٦١٦ هـ (١٢١٩م) ونشأ بها وهى احدى مدن الاندلس ونسمى بالاسبانية « مورسا » وهى كلمة اصلها يونانى مأخوذه من « مورتيا » ومعناها « الآس » وهى شجيره كانت منسوبه عند الاقدمين الى الزهرة . وهـذه المدينة اختطها عبد الرحمن الناصر الأموى من بلاد « بلنسيه » واليها نسب ابو العباس فقيل له « المرسى » .

وقد اقترن والده عمر بن على بالسيدة فاطمـة ابنة الشيخ عبد الرحمن المالقى وهو من الرجال الصالحين وفى ظل هذه البيئة الصالحة التى تسرى فيهـا روائح الدين الحنيف تهيأت لخلفهم مقومات التربية النظيفة ، والظروف المواتية لينشئوا نشأة دينية طاهرة ــ فلقى الولد الأكبر أبو عبد الله جمال الدين محمد وأخوه

أبو العباس العناية الكاملة فحرص ابوهما على تعليمهما أصول الدين وتحفيظهما كتاب الله الكريم .

فلما بلغ أبو العباس سن التعليم دفعه والده الى مؤدبه على نهج ما كان يتبعه آباء هذا الزمان ـ فتعلم القراءة والكتابة والخط والحساب فأظهر تفوقا واستعدادا عظيمين ولقيت المبادىء الدينية الارض الطيبة فيه فاذدهرت معارف هذا الصبى منذ نشـأته وتفتقت مواهبه وميله للتصوف وهو لا يزال صبيا حتى قال عن نفسه « كنت وانا صبى عند المؤدب وجاء رجل فوجدنى أكتب فى لوح فقال : الصوفى لا يسود بياضا فقلت له : ليس الأمر كما زعمت ولكن لايسود بياض الصحائف بسواد الذنوب وقال مرة « عمل الى جانب دارنا خيال الستار وانا اذ ذاك صبى فحضرته فلما أصبحت اتيت الى المؤدب وكان من أولياء الله تعالى فانشد حين رآنى :

يا ناظرا صور الخيال تعجبا وهو الخيال بعينه لو ابصرا

اشتغاله بالتجارة :

ولما اشتد أبو العباس وقوى ساعده ووضحت فيه علائم النبوغ والنجابة الحقه والده عمر بن على فى اعمال تجارته التى اقامها فى مرسيه مع أخيه الأكبر ابى عبد الله جمال الدين محمـد ـ وذلك لاستغلال كوامن النباهة فيه والانتفاع بمواهبه فى تجارته .. فصـار يرسله صحبة أخيه الى البلاد ليمارس الاعمال التجارية ويتدرب على شئونها ويزاول أمور الأخذ والعطاء وطرق التجارة فى الاسواق وأساليب التعامل فيها .

وقد كان أبو العباس ماهرا فى تجارته مخلصا لها فأمدته بكافة وسائل النجاح فيها وصقلته مدرسة الحياه ودرس فيهـا فنون المعاملات واخلاق الناس المتباينة ووسائل التفـاهم مع العقـول المتفاوته ومكنته قريحته النفاذه الى معرفة الاتجاهات الانسانية والوقوف على كوامن الجماعات وسبر اغوار القلوب وتبين هواجس

النفوس والشعور بالاحاسيس المختلفة التى يعيش فيها الناس

فما بزغت شمس الرابعة والعشرين على هـذا الشاب حتى تفتحت زهراته فكره ـ ووضحت معالمه ووصل عقد طور النضوج والكمال كل أولئك امتزجت بعناصر الاستقامة والامانة ومعرفة الله والخوف منه فظهرت آثارها بركات فى أعمال أبيه فآثره بحبه وعطفه على أخيه .

أسباب انتقاله من موطنه :

كانت سنة ٦٤٠ هـ (١٢٤٥ م) بمثابة نقطة التحول فى حياة ابى العباس اذ وجد نفسه وهو لايزال فى هذه السن المبكرة فى ظروف تحتم عليه الكفاح فى سبيل الحياه فقد اعتزم والده فى هذه السنة الحج الى بيت الله الحرام وصحب معه ولديه أبا عبد الله وابا العباس وامهما فاطمة فركبوا البحر عن طريق الجزائر ، حتى اذا كانوا على مقربة من شـاطىء بون .. هبت عليهم ريح عاصفة اغرقت المركب بمن فيها .

غير ان عناية الله أدركت ابا العباس واخاه فانجاهما الله من الغرق فقصدا تونس فأما الأخ الأكبر فاتجه نحو الاعمال التجارية وصار يتنقل فى الاسواق مباشرا الأخذ والعطاء على قدر ما سمحت له الاحوال .

وأما احمد فكان لاتجاهاته الدينية فى رسم وتحـديد الطريق الذى يسلكه ـ فأراد ان يستغل مواهبه بالاستزادة من مناهل العلم فاتخذ له مكتبا فى زاوية الفقيه محرز بن خلف وصار يعلم الصبية مبادىء القراءة والكتابة والخط والحساب وتحفيظ القرآن لأن مناهج التعليم الأولية كانت لا تتعدى هذه العلوم فى ذلك العصر .

تعرفه بالشيخ الشاذلى :

كانت سنة ٦٤٠ هـ هى نقطة التحـول فى حياة ابى العباس عندما القته المقادير على سواحل تونس التى كانت موطنا للشيخ

أبى الحسن الشاذلى وتشاء المصادفات أن يكون نزوله على مقربة من المكان الذى اتخذه الشيخ مقرا له بزاوية على سفح جبل زغوان ــ ويترامى صيته الى أبى العباس فيسعى اليه ليجد فيه ضالته المنشودة والآن فلنترك امامنا الشيخ أبو العباس يتكلم فيقول:

« لما نزلت بتونس ــ وكنت أتيت من مرسيه ــ وانا اذ ذاك شاب سمعت بذكر الشيخ ابى الحسن الشاذلى فقال لى رجل تمضى بنا اليه ؟

فقلت : حتى استخير الله فنمت تلك الليلة فرأيت كانى اصعد الى رأس جبل ، فلما علوت فوقه ، رأيت هنالك رجلا عليه برنس أخضر ، وهو جالس وعن يمينه رجل وعن يساره رجل فنظرت اليه فقال : عثرت على خليفة الزمان . فانتهيت فلما كان بعد صلاة الصبح جاءنى الرجل الذى دعانى الى زيارة الشيخ فسرت معه ــ فلما دخلت عليه رأيته بالصفة التى رأيته بها فوق الجبل، فدهشت فقال لى : عثرت على خليفة الزمان .

ما اسمك ؟ ؟ فذكرت له اسمى ونسبى فقال لى :رفعت الى منذ سنين ــ »

وصــــار يلازم الشيخ ابا الحسن ملازمته لظله وارتشف من فيضــه واصطبغ بالصبغة التى ميزت أهل الطـريق بعد أن تلقى أصولها وتفقه فى تعاليمها .

ولما رأى الشيخ أبو الحسن فيه هذه الاستعدادات وهــذه النجابة أحبه وقربه اليه واختصه بأسراره ــ وأفضى اليه بما اجتباه الله به من امدادات ونفحات ومكاشفات وعوارف كما غمره بما افاء الله عليه من خيرات وبركات حتى قال له قوله المشهور :

« يا أبا العباس : والله ماصحبتك الا لتكون أنت أنا وأنا أنت ، يا أبا العباس فيك ما فى الأولياء وليس فى الاولياء ما فيك »

وفى غمرة هذا الحب الخالص وهذه الثقة الغالية نرى فيما بعد ان امامنا أبا الحسن الشاذلى يوطد هذه العلاقة الكريمة ويبارك هذه

الصحبة المباركة ويربطها برباط مقدس هو رباط المصاهرة ...
فيزوج ابا العباس ابنته التى يأتى منها بجمال الدين محمد وابى العباس أحمد وبهجه التى زوجها لسيدى ياقوت العرش .

وعندما رأى ابو الحسن ان استقراره بتونس اصبح محفوفا بالمكاره وان دعوته ستتعرض حتما للمنازعات والفتن عقد العزم على الرحيل .

وقد آثر السفر معه بعض اصحابه وعلى رأسهم الامام أبو العباس المرسى فوصلوا الاسكندرية فى عام ٦٤٢ هـ (١٢٤٢ م) واتخذوا دارا بازاء قلعة « كوم دعايس » المعروفة الآن بكوم الدكة واخذوا يدعون الله فى كل مكان . وقد كان جامع العطارين بالاسكندرية الذى أنشأه بدر الجمالى سنة ٤٧٩ هـ الكعبة التى يؤمها أجلاء العلماء وأكابر الفضلاء يعقد فيها ابو الحسن مجالس علمه وحلقات درسه لتلامذته وكان الاقبال على دروسه عظيما سواء من عامة الناس أو من خاصتهم .

وفى سنة ٦٤٦ هـ جاء الامام ابو الحسن وقدم الشيخ ابا العباس واعلن خلافته له .. واذن له فى القاء الدروس على طلابه وتلاميذه وان يفقههم فى دينهم ويعلمهم مبادىء الشريعة وتلقين مبادىء السلوك ويرشدهم الى الله تعالى . ثم أكثر بعد ذلك من الترحل بالبلاد والتنقل فى انحاء الاقاليم مبشرا بمبادئه — ناشرا علومه ومعارفه وكان يلازمه فى رحلاته الشيخ ابو العباس أو يلحق به فى اقامته ثم يعودان الى الاسكندرية ثانية .

نشر الدعوة فى القاهرة :

لما تمت خلافة ابى العباس استأذن شيخه فى القيام بأمر الدعوة بالقاهرة باعتبارها معقل العلوم والمعارف ومهبط أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم — واتخذ من المدرسة الكاملية بالقاهرة مكانا لالقاء دروسه — وقد كانت القاهرة وقت ذاك غاصة بفطاحل

الفقهاء واكابر العلماء وعظماء الائمة مثال الشيخ عز الدين بن عبد السلام شيخ الاسلام والشيخ تقى الدين بن زفيق القشيرى القوصى وغيرهم من علماء الحديث المشهورين .

وقد وجد ابو العباس المرسى فى القاهرة مجمعا لمحبيه ومقصدا لمريديه فآثرها بالاقامة واتخذ من جامع الحاكم بالمقسى « جامع أولاد عنان » بمحطة القاهرة ــ مدرسة لبث تعاليمه ومبادئه بين الطلاب والمريدين كما جعله نزلا ومثوى .

وفى سنة ٦٥٦ هـ (١٢٥٨ م) خرج الشيخ أبو الحسن الشاذلى للحج ــ كان يحج كل سنة ــ ومعه أبو العباس المرسى ــ وتوفى أبو الحسن فى حميثرا وسط الطريق الصحراوى بين قنا بصعيد مصر والقصير على ساحل البحر الأحمر . ودفن هناك ولا يزال قبره معروفا للان .

قيام الشيخ أبى العباس بالدعوة بمفرده

ولما رجع الشيخ أبو العباس الى مصر قام بالمضى فى اتمام الرسالة التى ألقيت على عاتقه فى نشر الطريقة الشاذلية العصماء ــ هذا بجانب عمله الأصلى كعالم ومرشد ومهذب لطلابه ومريديه متنقلا بين مدن الأقاليم على نمط ما كان يفعله شيخه ــ وكان من عادته اذ جاء الصيف رحل الى القاهرة ونزل بجامع الحاكم بالمقسى « جامع أولاد عنان » وأخذ يتنقل بينه وبين جامع عمرو بن العاص بالفسطاط (مصر القديمة) حتى اذا ما حل الشتاء عاد الى الاسكندرية .

وكان أكثر من يحضر دروسه العلماء لا سيما اذا أخذ فى شرح « الرسالة القشيرية » فى التصوف للامام أبى القاسم القشيرى النسابورى لأنه كان يفيض فيها من الأسرار ما يملك النفوس ويعرض دقائق ما ورد فيها من أحوال التصوف والمتصوفين عرضا يأخذ الألباب حتى كثر أتباعه ودخل فى الطريق خلق كثير .

وظل أبو العباس حاملا لواء الدعوة من بعد شيخه ما يقرب من الثلاثين عاما أدى رسالته فيها خير أداء الى أن وافاه القدر المحتوم فانتقل الى جوار ربه فى الخامس والعشرين من ذى القعدة سنة ٦٨٥ هـ (١٢٨٧ م) عن ما يقرب من السبعين عاما .

شخصية الإمام أبى العباس المرسى

« العلماء ورثة الأنبياء » هكذا كان يقول رسولنا الكريم .

وامامنا أبو العباس المرسى ورث رسالته عن استحقاق وكان جديرا بأن يضطلع بأعبائها وينهض بمسئولياتها بما اجتباه ربه من صفات أعدته وأهلته للقيام بهذه المهام من غير ضجر ولا سأم بل كان صبورا بلغ الذروة فى صبره وبلغ فى جلده مبلغا قل أن نشهد له نظيرا أو نرى له مثيلا فقد كان يشكو أمراضـا كثيرة لا تحتملها الجبال ، ومع ذلك فقد كان يعقد حلقات درسه ولا يتأوه حين جلوسه ولا يعلم الجالس عنده أن به شيئا من الأمراض ولم تكن تلك الأمراض قد أورثته صفرة أو شحوبا فى وجهه ولا نحولا فى بدنه ـ كان يقول لأصحابه « لا تنظروا الى حمرة وجهى فحمرة وجهى من قلبى » .

وذخل عليه ابن عطاء الله فوجد به ألما فقال له : « أظنك يا سيدى ضعيفا » فقال رضى الله عنه : « الضعيف من لا ايمان له ولا تقوى » .

واذا كان الصبر من الصفات الموروثة عن الأنبيـاء فكذلك الزهد الذى هو شعار الصوفية القديم ، والزهد الذى يعنيه أهل الصوفية ـ هو زهد معتدل متوازن لا تطرف فيه ولا شذوذ ولا تكلف . وذلك لأنهم يستمدون تعاليمهم من منابع اسلامية أصيلة والاسلام لا يعرف الزهد المطلق ، ولا رهبانية فى الاسلام بعد أن

دعا إلى الأخذ بأسباب الدنيا والعمل لأجل الآخرة استجابة لدواعي الروح والمادة معا كوحدة واحدة لا انفصام فيها .

لهذا كان من طريقته رضى الله عنه الحرص على الظهور أمام الناس بالمظهر اللائق مع عدم التكلف فكان يلبس أفخر الثياب وأثمنها وكان بادى النظافة والوسامة وكان يتطيب وكان كثير الوقار ظاهر الهيبة ومع هذا كان حسن السمت مربوع القامة أبيض الوجه تام الخلق جميل المحيا ، كث اللحية .

ولهذا كان يستنكر على أهل الطريق لبس الزى والمرقعات . مستندا الى قوله تعالى : « يا بنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا انه لا يحب المسرفين » الآيتين ٣١ ، ٣٢ من سورة الأعراف .

وكان من زهده رضى الله عنه أنه خرج من الدنيا وما وضع حجرا على حجر ولا اتخذ بستانا ولا افتتح سببا من أسباب الدنيا ولا خلف وراءه ورقة .

وقال رضى الله عنه : رأيت عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى المنام فقلت يا أمير المؤمنين ما علامة حب الدنيا ؟ قال : خوف المذمة وحب الثناء ـ فاذا كان علامة حبها خوف المذمة وحب الثناء فعلامة الزهد فيها وبغضها أن لا يخاف المذمة ولا يحب الثناء .

وحدث رضى الله عنه أن شيخه أبا الحسن قال له : اذا أردت أن تكون من أصحابى فلا تسألن أحدا شيئا ، فمكثت على ذلك سنة ، ثم قال : ان أردت أن تكون من أصحابى فلا تقبل من أحد شيئا .. فكان اذا اشتد بى الوقت أخرج الى ساحل البحر بالاسكندرية فالتقط ما يرميه البحر بالساحل من القمح الذى يسقط من المراكب عند نقله .

وكان رضى الله عنه لا يأكل طعاما عنى له ولا من طعام أعلم به قبل أن يأتيه .

وكان لا يدعو للمحسن حتى يخرج من مجلسه فيدعو له بظهر الغيب ـ وكان اذا أهدى له شيء يسير تلقاه ببشاشة وقبول واذا أهدى اليه شيء كثير ـ تلقاه بعزة نفس واظهار الغنى عنه .

ومن حكمه رضى الله عنه : الزاهد جاء من الدنيا الى الآخرة والعارف جاء من الآخرة الى الدنيا .. والزاهد غريب فى الدنيا لأن الآخرة وطنه والعارف غريب فى الآخرة .. فانه عند الله ..

حياته العلمية

يعتبر الامام أبو العباس من أبرز علماء الاسلام الأفذاذ وقطبا من أقطاب الصوفية الأجلاء الذين بددت أنوارهم حجب الظلام فكانوا مصابيح الهداية وشموس الرشاد . ولقد أعده الله بكافة حواس المعرفة ، فله القلب الخالص ، والأذن الداعية والنفس الطاهرة والعقل الراسخ كلها أعدته لأن يكون أهلا لفيض الالهامات الربانية والعلوم الالهية . فضرب بسهم صائب فى شتى ميادينها واطلع على أسرارها وكوامنها . فأجاد علوم التفسير بعد أن استوعب كتاب الله وملأ به صدره وأحاط بكافة علوم الفقه والحديث والأصول والأدب ومبادىء السلوك والأخلاق والمنطق والفلسفة وعلم النفس .

وكان رضى الله عنه عالما عاملا .. فحسبنا دليلا أنه لم يأل جهدا فى تكريس حياته ووقفها على خدمة العلم وافادة طالبيه والشواهد تؤيد انقطاعه للدرس والتلقين انقطاعا تاما لم يدخر معه وقتا ليترك وراءه كتابا يحمل اسمه أو مؤلفا يخلد ذكره جريا على ما كان من علماء عصره وكان يقول قوله المأثور :

« أن علوم هذه الطائفة علوم تحقيق ، وعلوم التحقيق لاتحملها

عقول عوام الخلق فكتبى قلوب أصحابى » وكذلك كان شيخه الامام أبو الحسن الشاذلى رضى الله عنه .

ولقد لمع نجمه فى شتى العلوم حتى لقد كان ابن عطـاء الله السكندرى يقول انه قد أتقن علوما كثيرة وأخذ بنصيب وافر منها بدرجة أن المتحدث اليه فى علم من هذه العلوم ينصرف من بين يديه وهو يظن أنه لا يحسن الا ذلك العلم الذى كان يتحدث فيه .

فلا غرابة اذن أن نرى امامنا العظيم يتبوأ عرش الامامة فى عصره ولا يجد شيخه الامام أبو الحسن من يضطلع بالخلافة من بعده وينهض بأعباء الطريقة غيره ــ فيتركه يتصدر مجالس العلم والتلقين ويجلس اليه العلماء والفقهاء يسمعون وينزلون عند قوله ورأيه .

وكفى به فخرا أن يتخـــرج على يديه كبار الأئمة الأقطاب كالبوصيرى وياقوت القرشى وتاج الدين أبى العباس أحمـــد (ابن عطاء السكندرى) الذى كان يقول : « ما كنت تجلس بين يدى أبى العباس الا والرعب يملك قلبك » وكل من هؤلاء الثلاثة يعتبر حجة فى العلم ومنبعا لا ينضب من المعرفة والدراية .

فلسفته وتصوفه

كان أبو العباس رضى الله عنه من أكبر مفكرى الاسلام احاطة بشريعته وتعاليمه واسع المعرفة بمذاهب الفلسفة الاسلامية التى أخذها عن شيخه أبى الحسن الشاذلى .

فأمدته هذه المعرفة بمادة خصبة صـــاغتها عبقريته مبادىء حديثة وحكما مبتكرة لا تخلو من النغمات الفلسفية والعلمية ، وتتمشى مع أصول التشاريع الاسلامية .

ويجدر بنا أن نسجل بعض ما أمكن العثور عليه من الحكم والمأثورات التى عالج فيها شتى الأمور على هذا النمط فنجده

يخرج لنا تحليلا فى لفظ الجلالة مثلا ، متبعا منطقا طريفا مبتكرا لم يسبقه فيه فيقول :

كل اسم من أسماء الله تعالى اذا أسقطت منه حرفا أذهبت دلالته على الله كالعليم ، والقادر ، والرحيم وغير ذلك من أسمائه الحسنى الا ـ اسم « الله » فانك ان أسقطت الألف بقى « لله » واذا أسقطت اللام الثانية بقى « هو » وهو النهاية فى الاشارة .

وقال : جميع أسماء الله للتخلق الا اسمه « الله » فانه للتعلق فليكن ذكرك : « الله » فان هذا الاسم سلطان الأسماء وله بساطة وثمرة : فبساطة العلم وثمرته النور . والنور ليس مقصودا لنفسه وانما يقع به الكشف والبيان .

وتتجلى دقة دراسته رضى الله عنه فى التعبير عن أحوال الناس فيقول :

صلاح العبد فى ثلاثة أشياء : معرفة الله ، ومعرفة النفس ، ومعرفة الدنيا ـ فمن عرف الله خاف منه ، ومن عرف النفس تواضع لعباد الله ، ومن عرف الدنيا زهد فيها .

وله من التشبيهات الجميلة والمجاز الغريب والتخاريج الفريدة ما يأخذ بالألباب ويدهش العقول .

فيتكلم فى حالات النفس وخلجاتها فيقول رضى الله عنه :

« أن ابراهيم سمى فتى لأنه كسر الاصنام فهو الفتى الخليل عليه السلام وجد أصناما حسية فكسرها ، وأنت لك أصنام معنوية فان كسرتها كنت فتى ولك أصنام خمسة هى :

النفس ، والهوى ، والشيطان ، والشهوة ، والدنيا .

الفتوة الايمان والهداية قال الله تعالى :

« انهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى » (آية ١٣ سورة الكهف) .

تفسيره لآيات الذكر الحكيم
والأحاديث النبوية

لم تفارق ـ بالطبع ـ النزعات الفلسفية والاتجاهات الصوفية الامام أبا العباس المرسى فى تفسيره لآيات القرآن الكريم ، فحفلت كلها بالمخارج الحسنة التى تنم عن توفيق فى الفهم وامعان فى استيعاب الآيات وهو ما يمكن أن نستشفه من شرحه للآيات الآتية :

١ ـ قال فى قوله تعالى فى سورة الفاتحة « الحمد لله رب العالمين » : علم الله سبحانه وتعالى عجز خلقه عن حمده فحمد نفسه بنفسه فى أزله ، فلما خلق الخلق اقتضى منهم أن يحمدوه بحمده فقال « الحمد لله رب العالمين » أى قولوا « الحمد لله رب العالمين » أى أن الحمد الذى حمد به نفسه بنفسه هو له لا ينبغى ان يكون لغيره فعلى هذا يكون واللام عهدتيين .

٢ ـ وقال فى قوله تعالى « اياك نعبد واياك نستعين » اياك نعبد شريعة واياك نستعين حقيقة ـ اياك نعبد اسلاما واياك نستعين احسانا ـ اياك نعبد عبادة واياك نستعين عبودية ـ اياك نعبد فرقا ـ واياك نستعين جمعا .. الخ .

وقال فى قوله تعالى « سماعون للكذب أكالون السحت » (آية ٤٥ سورة المائدة) .

هذه الآية نزلت فى اليهود ومن كان من فقراء هذا الزمان مؤثرا للسماع لهواه ، آكلا مما حرمه مولاه فهى نزعة يهودية لأن القوال يذكر العشق وما هو بعاشق ـ والمحبة وما هو بمحب والوجد وما هو بمتواجد ، فالقول يقول الكذب ، والمستمع ساع له ـ ومن أكل من الفقراء طعام الظلمة حين يدعى الى السماع ؛ فهو يصدق عليه القول لله ، سماعون الكذب أكالون للسحت » .

تفسيره للأحاديث النبوية :

وعلى هذه الوتيرة وهذا المنوال يسترسل هـذا العالم الكبير في شرح بعض الاحاديث النبوية التى تعرض لهـا فيقـول رضى الله عنه :

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يسروا ولاتعسروا » .

فيقول فى ذلك : أى دلوهم على الله ولا تدلوهم على غـيره ـ فان من ذلك على الدنيا فقد غرك ومن ذلك على الاعمال فقد أتعبك ومن دلك على الله فقد نصحك .

ـ وقال فى قول رسول الله صلى الله عليه وسلم « أنا سـيد ولد آدم ولا فخر » .

أى ولا افتخر بالسيادة وانما أفتخر بالعبـودية لله سبحانه وتعالى .

وكان كثيرا ما ينشد :

يا عمرو نادنى عبـد زهراء يعـرفه السـامع الرائى
لا تدعنى ألابيـا عبـدها فانه أشـرف أسـمائى

من أشعاره :

واذا أردت من السـلوك أجـله
فالزهد فى الدنيا مع السمت الحسن
واعبد الهك حيث كنت على الرضى
تحظى بمـا قـد ناله أهـل المنن

وكتب لشيخه شهاب الدين أحمد أبى الحسن الشاذلى يقول :

سلام على من عـلا نوره علينـا ففى مثله يرغب
كريم منـاقبه جمـة على الحق يبنى ولا يرهب

ولم لا وخير الورى جده | له منه سيف به يضرب
الى أن يقول :

يزيد على القوم علما به | يفوق الامام ولا يسلب
لقد فتح الله فى وقته | قلوبا عن الحق لا تحجب
ويشقى به حاسد جاحد | بعيد عن الحق مستصعب
وانى مقر بتخصيصه | فمن مثله فى الورى يصحب
ومنا عليكم سلام به | نلاقى العداة ولا نغلب

وكان رضى الله عنه يرى فى العمل عبادة من خير العبادات بل كان يرى كما يرى أستاذه أبو الحسن الشاذلى أن حركات الجسم وهو يؤدى عملا من الاعمال التى تزيد فى الانتاج وتنفع الناس انما هى نوع من أنواع التسبيح لله سبحانه وتعالى واذا كان أستاذه الشيخ الشاذلى يقول « عليكم بالسبب أى العمل والسعى وراء الرزق ــ وليجعل أحدكم مكوكه سبحته تحريك يده فى الخياطة سبحته .

وقال لتلميذه الوفى ابن عطاء الله السكندرى حين أراد أن يترك عمله ويصحبه :

لا ولكن امكث فيما أقامه الله لك وما قسم لك على أيدينا فهو واصل اليك » .

مسجده

أقام أبو العباس المرسى فى الاسكندرية ثلاث وأربعين سنة ينشر العلم ويهذب النفوس ويضرب المثل بورعه وتقواه الى أن انتقل الى جوار ربه فى الخامس والعشرين من ذى القعدة سنة ٦٨٥ هـ ودفن فى الاسكندرية فى مقبرة باب البحر الى أن كانت سنة ٧٠٦ هـ حين رأى الشيخ زين الدين بن القطان كبير تجار الاسكندرية فبنى عليه مسجدا وقد خضع هذا المسجد لتطورات كثيرة حيث أعاد

بناءه الامير قجاش الاسحاقى الظاهرى والى الاسكندرية فى أواخر القرن التاسع الهجرى وبنى لنفسه قبرا فيه .

وفى سنة ١٠٠٥ جدد بناءه الشيخ ابو العباس السنفى ودفن فيه بعد وفاته وفى سنة ١١٨٩ زار الاسكندرية الشيخ أبو الحسن على بن عبد الله المعزى وجدد معظم أجزاء المسجد ووسع بعض نواحيه .

وفى سنة ١٢٨٠ جدد أحمد الدخاخنى شيخ طائفة البنائين واوقف عليه أوقافا كثيرة .

وفى سنة ١٩٢٧ أعدت وزارة الاوقاف مشروعا لاعادة بناء المسجد وانشاء ميدان فسيح أمامه ووضعت الاسس للبناء الجديد فى أوائل سنة ١٩٢٩ وتم المسجد فى سنة ١٩٤٤ فأصبح أجمل مساجد المدينة .

ولقد كان مسجد أبى العباس المرسى مركز تجمع المظاهرات الشعبية الثائرة التى قام به السكندريون خلال ثورة سنة ١٩١٩ اذ كانت تخرج منه مخترقة أحياء المدينة كما اتخذ منه رجال الدين الاسلامى والمسيحى ملتقى يجتمعان عنده ويبثان من على منبره الدعوة الى الكفاح والتضحية فى سبيل الحرية والعدالة .

من أولياء الإسكندرية

الولى الشاعر : البوصيرى

٦٠٨ ــ ٦٩٥

البوصيرى « محمد بن سعيد بن جماد » ، « أبو عبد الله شرف الدين » من أسرة مغربية تنتمى الى صنهاجه « قبيلة بالمغرب » ولد فى بوصير سنة ٦٠٨ وهى قرية تقع بين بنى سويف والفيوم ومنها استمد لقبه .

عاش صبيا فى القرية وشابا فى القاهرة وقد افتتح مكتبا لتحفيظ القرآن الكريم ثم عمل كاتبا ببلبيس وبالمحلة واخيرا انتقل الى الاسكندرية حيث عمل بجمركها .

واشتهر بقصيدتين البردة والهمزية وقد نالت الاولى منهما مالم تنله قصيدة عربية من قبل من الاجلال والاحترام حتى اتخذها كثير من الناس وردا من أوراد العبادة وقلدها الكثير من الشعراء وخمستها وسبعها وتسعها كثيرون أيضا .

ومن أشهر الذين عارضوها محمود سامى البارودى بقصيدته « كشف الغمة فى مدح سيد الامة » وأولها .

ياسارى البرق يمم دارة العلم　　واحد الغمام الى حى بذى سلم

وأحمد شوقى فى قصيدته نهج البردة التى مطلعها

ريم على القاع بين البان والعلم　　أحل سفك دمى فى الاشهر الحرم

وقصيدة البردة هذه تحتوى على كثير من المعانى والاغراض الدينية ولا تكفى هذه العجالة لبيان ما فيها من بيان معجز ومطلع هذه القصيدة قوله :

أمن تذكر جيران بذى سلم　　مزجت دمعا جرى من مقلة بدم؟

ومن توجيهاته الحكيمة فيها قوله :

والنفس كالطفل ان تهمله شب على　　حب الرضاع وان تفطمه ينفطم
فاصرف هواها وحاذر أن توليه　　ان الهوى ماتولى يصم أو يصم
وراعها وهى فى الاعمال سائمة　　وان هى استحلت المرعى فلاتسم
كم حسنت لذة للمرء قاتلة　　من حيث لم يدر أن السم فى الدسم

ومنها فى وصف آيات القرآن الكريم :

دامت لدينا فقامت كل معجزة　　من النبيين اذ جاءت ولم تدم
ماحوربت قط الا عاد من حرب　　أعدى الاعادى اليها ملقى السلم

لها معان كموج البحر فى مدد   وفوق جوهره فى الحسن والقيم
لا تعجبن لحسود راح ينكرها   تجاهلا وهو عين الحاذق الفهم
قد تنكر العين ضوء الشمس من رمد   وينكر الفم طعم الشهد من سقم

ومن الروايات التى تدور حول هـذه القصـيدة انه أصيب بالشلل فتوسل بها الى الله فشفى .

وهناك من يقول بأن الرسـول صلى الله عليه وسلم أتم له بيتا منها فى المنام .

ويروى ابن حجر فى الدرر الكامنة أن البوصيرى اشـتد به الرمد فتوسل بها الى الرسول فمس عينيه فى المنام فبرىء .

أما قصيدته « الهمزية » فرقيقة رشيقة وتعد من البطولات فى الشعر العربى اذ تربو على ٤٠٠ بيت ومطاعها .

كيف ترقى رقيك الانبيـاء   يا سـماء ما طاولتها سـماء
لم يساووك فى علاك وقـد حال   سـنى منك دونهم وسـناء
انمـا مثلوا صـفاتك للنـاس   كما مثـل النجـوم المـاء

على أن البوصيرى يمتاز فى شعره الاجتماعى بالدعوة الاصلاحية وبأفكاره التقدمية التى تدهش السامع نظرا لبعد عصره عن عصرنا هـذا .

اسمعه وهو يأخذ على بعضهم مظهر الورع الذى تختفى وراءه حقيقة غير ورعة فيقول :

تورع معشر منهـم وعـدوا   من الزهـاد والمتورعينـا
وقيـل لهـم دعاء مسـتجاب   وقد ملأوا من السحت البطونا
فلا تقبـل عفـاف المرء حتى   ترى أتبـاعه متعففينـا
أليس الآخـذون بغير حـق   لما فـوق الكفـاية خائنينا
وأن الـكانزين المـال منهـم   أولئك لـم يكونوا مؤمنينا

وانك لتلمس فى البيت الرابع من هذه المقطوعة ظلالا اشتراكية واضحة ولا يتسع المقام هنا أيضا لتحليل شعره الاجتماعى المليء بأمثال هذه النظرات الصائبة .

والبوصيرى من تلاميذ أبى العباس المرسى وله فيه قصائد مدح جيدة وقد شاء الله سبحانه وتعالى أن يتوفى بالاسكندرية وأن يدفن بالقرب من ضريح شيخه سنة ٦٩٥ وقد بنى مسجده هذا حوالى سنة ١٢٧٠ هـ أما البناء الخارجى منه فقد أقيم فى أوائل هذا القرن .

والذى يزور هذا المسجد يشهد البردة المكتوبة برقائق الذهب على أرضية زرقاء بخط بالغ الجمال .

ونختتم هذه الكلمة عن الامام الشاعر البوصيرى ببيت من نظمه هو نوجهه اليه بهذه المناسبة يقول فيه :

أنت أحسنت فى الحياة الدنيا　　أحسن الله فى الممات اليكا

الولى العالم .. الإمام الطرطوشى

٤٥٠ ـ ٥٢٠ هـ

أبو بكر الطرطوشى عالم دينى واجتماعى معا ، وهو شاعر مجيد كذلك ، ألف كتابه « سراج الملوك » فكان من خير ما خلفه العلماء السابقون هداية للشعوب وحكامها ، وهو رجل يقدر للشعوب قيمتها ، ويعرف حقها ، ولذلك يقول فى صراحة لم يكن يدار سها غير القليلين فى ذلك العهد .

« ان الرغبة اذا قدرت على أن تقول .. قدرت على أن تفعل » جاء الى الاسكندرية حوالى سنة ٤٩٠ هـ تقريبا وكان فيها الملك الافضل بن أمير الجيوش ، وقد بدأ الافضل حياته العلمية هذه بالإنتقام من العلماء والشعب لفتنة كانت قد قامت ضده نقام

الطرطوشى بشئون الوعظ واشاعة العلم بين الناس وعندما التقى بالأفضل لأول مرة كان لقاؤه اياه مثيرا ويبدو هذا فى الكلمة التى ألقاها اليه وفيها يقول :

أيها الملك .

ان الله سبحانه وتعالى قد احلك محلا عاليا ، وملكك طائفة من ملكه فلا ترضى أن يكون احد أولى بالشكر منك ، وليس الشكر باللسان ولكنه بالفعال قال الله تعالى « اعملوا آل داود شكرا وأعلم ان هذا الملك الذى أصبحت فيه ، انما صار اليك بموت من كان قبلك وهو خارج عن يدك مثل ما صار اليك ، فاتق الله فى هذه الأمة فان الله سائلك ، عن القطمير والنقمير والفتيل قال الله تعالى « فوربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يفعلون » فافتح الباب وسهل الحجاب وأنصر المظلوم » .

كان الطرطوشى جريئا فى الحق لا تأخذه فيه لومة لائم وقد دعا الى مقاطعة بعض الواردات الأجنبية واعتبرها ماسة بالدين ومن ثم خاف الأفضل من جرأة الشيخ وأثر مواعظه فى الجماهير فاعتقله مدة طويلة حتى ضجر الشيخ ومن هنا راح يستغرق فى العبادة ثلاثة أيام متواصلة وهو يقول « الى متى نصبر » حتى اذا أدى صلاة المغرب الأخيرة قال :

رميته الآن .

وما لبث أن جاءته الاخبار بأن الملك الافضل قتل فى هذه اللحظة وكان ذلك سنة ٥١٥ هـ ولهذا اعتقد فيه خليفته المأمون البطائحى وأكرمه .

ولد الطرطوشى سنة ٤٥٠ هـ بمدينة طرطوشة احدى مدن الاندلس وعاش عالما زاهدا ورعا حتى وفد الى الاسكندرية فقام برسالته العلمية خير قيام وقد ألف كثيرا من الكتب النافعة وفى

مقدمتها كتابه المشهور سراج الملوك ومن كتبه مختصر تفسير الثعالبى هذا بالاضافة الى عشرين كتابا أخرى فى مختلف الاتجاهات ذات الطابع الدينى ومن شعره :

اعمــل لمعادك يا رجـل   فالنــاس لدنيـاهم عملوا
وادخـر لمسـيرك زاد تقى   فالقـــوم بلا زاد رحـلوا

وقد وصفه القاضي عياض « بأنه الامام الورع » وقال عنه ياقوت « هذا الذى نشر العلم بالاسكندرية وعليه تفقه أهلها » ونعته السيوطى فقال « انه أحد الأئمة الكبار » .

وتوفى الطرطوشي سنة ٥٢٠ هـ ودفن بقبر بنى عليه مسجد فيما بعد ويقع بالحى المسمى باسمه بجوار « كوم الناضـورة » اى محطة الارصاد الجوية فى حارة صغيرة وقد ظل مسجده مهدما حتى بناه المرحوم السيد ابراهيم مورو أحد أهالى الاسكندرية سـنة ١٢٧٠ هـ وأوقف عليــه أوقافا وهـو الآن تابع لوزارة الأوقاف ...

وكان الامام الطرطوشي رجلا نشطا منتجا خصب الانتـاج ، عرف منها اثنين وعشرون مؤلفا ــ الموجود منها تسعة والباقى مفقود ومن هذه المؤلفات التسعة طبع اثنان فقط والسبعة الأخرى مازالت مخطوطة وبعض هذه المؤلفات تتصل بعلوم التفسير ومسائل الخلاف والفقه ــ وفقه مالك بوجه خاص ــ والبعض الآخـر يتنـاول بالبحث علم السياســة وفن الحـكم والمجتمع وأدواءه وأحواله .

وكتاب « سراج الملوك » .

أهم كتبه جميعا وأقيمها ــ وهو واحد من كتب الطرطوشى القليلة التى وصلتنا فان معظم كتبه قد فقدت للاسف وهذا الكتاب الوحيد من بين هذه القلة الباقية الذى طبع أكثر من مرة .

والطرطوشى فى هذا الكتاب من الطلائع ومن رواد الفكر الاسلامى الأوائل الذين حاولوا التأليف فى علم السياسة وفن الحكم — وقد أشار ابن خلدون فى مقدمته الى كتاب الطرطوشى « سراج الملوك » واعترف انه من المفكرين القلائل الذين سبقوه بالتأليف فى علم الاجتماع أو العمران ...

وقد قسم الطرطوشى كتابه « سراج الملوك » الى أربعة وستين فصلا جعل الفصل الاول فى مواعظ الملوك والفصل الثانى فى مقامات العلماء الصالحين عند الأمراء والسلاطين ومن بينها فصل لمنافع السلطان ومضاره وفصل آخر لمعرفة الخصال التى هى قواعد السلطان وفصل للوزراء — وعقد فصلا للحديث عن علاقة السلطان بالجند وبيت المال وفصلا للحديث عما يصلح الرعية من الخصال وما الى هذا من موضوعات كثيرة تتصل بسياسة الملوك وفن الحكم وتدبير أمور الرعية .

وقد ذكر فيه الكثير من الحكم والأمثال والقصص التى تؤيد صحة هذا المبدأ وهو يقتبس هذه الحكم والقصص والنوادر من سير الانبياء والخلفاء الصالحين ومن سير الملوك والحكماء السابقين من مختلف الأجناس والعصور .

الولى الزاهد .. القبارى

٥٨٧ — ٦٦٢ هـ

ولد أبو القاسم بن منصور بن يحيى المالكى المعروف بالقبارى سنة ٥٨٧ هـ وكان عفيف النفس محبا للعلم جادا فى حياته .

ادرك فى طفولته عصر صلاح الدين وشهد فى شيخوخته قيام دولة المماليك ورأى بعينيه كفاح مصر ضد الصليبيين اتخذ فى حياته بستانا يزرعه ويأكل من ثمره وبنى فيه دارا يتعبد فيها .

وكان يرى أن العمل فريضة وعبادة وان السؤال مذلة ومهانة ومن أقواله :

« من قعد فى خانقاه فقد سأل ، ومن لبس سبحة فقد سأل ، ومن فتح مصحفا فى مسجد فقد سأل » .

ولقد كان عزيز النفس .. كم سعى لزيارته ولاة الاسكندرية وكبار رجال الدولة فلم يقابلهم ، ومن الأدلة على عفة نفسه وعزتها أن السلطان الظاهر بيبرس زار الاسكندرية سنة ٦٦١ هـ وأرسل الى الشيخ يستأذنه فى زيارته فأذن له .. فلما أتاه الظاهر فى بستانه وسأله عن حاجته لم يقل له شيئا ولما سأله النصيحة : أوصاه بعمارة أسوار الاسكندرية وتحصينها فنفذ الظاهر بيبرس وصيته .

كان مستجاب الدعوة ويروون عنه فى ذلك حكايات وكان ثقيل السمع الا أنه يحب العلم الى الغاية القصوى وكان أصدقاؤه ينقلون اليه ما يتلى فى هذه المجالس بصوت عال .

وتوفى أبو القاسم القبارى الى رحمة الله سنة ٦٦٢ عن ٧٥ عاما ودفن فى بستانه وأقيم عليه مسجد صغير جدد فى منتصف القرن التاسع عشر وسكن الناس حوله حتى أصبح حى القبارى من أحياء المدينة المهمة .

الولى ياقوت العرشى

من أخلص تلاميذ أبى العباس الى الناس وتعلم على يديه فأصبح من كبار علماء المدينة وليس أدل على ثقة الشيخ فى تلميذه ومحبته له من أن الناصر بن محمد بن قلاوون وهو ابن السلطان الحاكم على مصر فى هذا العصر طلب أن يتزوج « بهجة » بنت

الشيخ أبى العباس المرسى وكانت ذات جمال فرفض أبو العباس ذلك الزوج وزوجها من ياقوت العرشى .

وعاش ياقوت بعد أستاذه مدة وتوفى قبل نهاية القرن السابع واقيم مسجد على ضريحه ثم تهدم ، وجدد هذا المسجد المرحوم احمد الدخاخنى شيخ طائفة البنائين بالاسكندرية سنة ١٢٨٠ هـ .

الولى .. الفقيه .. سند بن عنان

كان سند بن عنان من أئمة المذهب المالكى بالاسكندرية وهو من تلاميذ « الطرطوشى » المخلصين وقد حل محله فى التدريس بعد وفاته .

ولما كانت « المدونة » من أهم الكتب فى مذهب الامام مالك فقد وضع لها سند بن عنان شرحا متسعا يبلغ الثلاثين مجلدا ولكنه لم يتمه .

قال عنه عالم مصر فى ذلك العهد الشيخ تقى الدين بن دقيق العيد « انه كان فاضلا من أهل النظر » .

وكان سند شاعرا غير أن شعره يغلب عليه الطابع الفقهى .

هذا وقد توفى سند بن عنان سنة ٥٤١ هـ بعد أن ظل يدرس للناس أكثر من عشرين سنة ..

ودفن بالقرب من قبر الطرطوشى ولا يزال مسجده قائما الى الى الآن بشارع الباب الأخضر بالسكة الجديدة بالاسكندرية .

تحدث أبو القاسم بن مخلوف بن عبد الحق فقال :

« أخبرنى من أثق به انه رأى الفقيه أبا على سند بن عنان فى المنام فقال له .. ما فعل الله بك ؟

فقال .. عرضت على ربى فقال لى أهلا بالنفس الطاهرة الزكية .

دور الاسكندرية فى النضال الوطنى

عروس البحر الأبيض المتوسط .. ثغر مصر الجميل .. أرض الأبطال والثوار .. أرض الأحرار والمناضلين من أجل الكرامة الانسانية والعزة والحرية .. الأرض التى وسعت روادها ولفظت من خان ترابها .. الاسكندرية العاصمة الثانية لمصر الحبيبة ، مقبرة الغزاة والمعتدين منذ انشائها سنة ٣٣١ ق.م حتى يومنا هذا من القرن العشرين .. تاريخ حافل بالبطولة والنضال .. وتسجيل لأروع الانتصارات لفتية مصر الأبرار على مر العصور فاذا تحدث التاريخ لهال الحديث وصفحاته صور رائعة للبطولة التى تجلت فى شعب الاسكندرية الحر .. وان تناست مصر سيطرة الأجنبى على أرضها منذ آقدم العصور الى ان خلصت لسيطرتها الكاملة على نفسها ، يوم خرج أحد أبنائها الأحرار ليضرب الاستعمار والرجعية والملكية المستبدة ضربة كانت هى القاضية يحمل فى يده رايته المزدانة بأهداف ستة فى ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ فانها لن تنسى مواقف الاسكندرية الخالدة . وهى تصد غارات بيزنطة ففى عام ٣٤ هـ ٦٥٤ م خرج شعب الاسكندرية وراء قائده العربى عبد الله بن سعد يواجهون عدوان البيزنطيين وقد جاء فى اكثر من ألف سفينة تحت لواء الامبراطور قسطنطين بن هرقل ودارت رحى الحرب ضارية ، وكانت هزيمة الروم نكراء تحطمت بها قواتهم ولقنوا درسا بليغا منعهم من معاودة الكرة مرة أخرى وقد كان لشجاعة أهل الاسكندرية وخطة القائد العربى عبد الله بن سعد أكبر الفضل فى هزيمة هذا الأسطول فى الموقعة التاريخية الكبرى « موقعة ذات الصوارى » نسبة الى كثرة صوارى المراكب واجتماعها وكانت هذه فاتحة الانتصارات الكبرى التى حققت فيما بعد أعظم انتصار رائع لشعب عظيم ... صفحة خالدة فى سجل مقدس .. وان حمل بين طياته أحداثا

بشمعة فرضها تاريخ ذلك العصر .. منها تلك السيطرة التى عمت البلاد تحت حكم المماليك الذين فرضوا أنفسهم أمراء على مقاطعات قسموها بينهم وهى الأرض الواحدة للوطن العزيز .. حكموها بالجور والبطش والغدر والخيانة .. ولم تسلم الاسكندرية من بطشهم .. ولكنها عبرت عن سخطها وكرهها للوضع القائم واحتقارها التام لاولى الامر فى ذلك الزمان وليس أدل على ذلك من تلك الرواية المشهورة التى تقص أحداثا بقتل رجل من اهالى الاسكندرية على يد أحد الجنود المماليك الأمر الذى دفع الأهالى فى ثورة غضب كرجل واحد الى القبض على قائد جند المماليك « السردار » وأوسعوه ضربا ثم أرغموه وهو عارى الرأس على ركوب حمار وطافوا به شوارع المدينة بين سخرية الأهالى وضربهم له بالنعال ..

الاسكندرية والغزو الفرنسى :

ومن آلام الجروح التى فرضها واقع ذلك العصر وضمدها كفاح الشعب العظيم مسجلا فى تاريخه العريق كفاحه المرير ضد المعتدين الأوروبيين منذ أن تفتحت أعينهم على مصر كغنيمة يتسابقون من أجل الفوز بها .. وتبدأ القصة عندما علمت انجلترا بتفكير فرنسا جديا فى غزو مصر أمرت نلسن بتقصى حركات الاسطول الفرنسى فى البحر المتوسط .. ولما عام نلسن بمغادرة الحملة الشواطىء الفرنسية متجهة نحو الشرق توقع أن تكون وجهتها مصر فسبقها الى مياه الاسكندرية . ووصل فى ٢٨ يونية ١٧٩٨ واتصل بحاكم الاسكندرية السيد محمد كريم وأبلغه بعزم فرنسا على غزو مصر وانه لم يحضر بأسطوله الا لحماية البلاد من الغزو الفرنسى .. وطلب منه نلسن أن يسمح للأسطول الانجليزى بالبقاء فى مياه الثغر ولكن السيد محمد كريم رفض هذا الطلب بشجاعة غير هياب ولا وجل لدرجة أنه امتنع عن امدادهم بالزاد والماء خارج الميناء .

ولم يغمض الأهل الاسكندرية جفن منـــذ أن ظهر الأسـطول الإنجليزى فى مياهها ومنذ أن عرفوا بعزم فرنسا على احتلال ديارهم فأخذوا يستعدون لملاقاة الفرنسيين بكل ما أوتوا من قوة فى حدود امكانياتهم الضئيلة وفى مثل هذه الظروف القاسية .

وعندما وصل الأسطول الفرنسى فى أول يوليو من نفس السنة التى الاسكندرية أسرع نابليون بانزال جيشـه الى البر فى منطقة العجمى وتم ذلك ليلا دون أن يعترضه أحد ثم سار على الأقدام مع فصيلة من جيشه قاصـدا الاسكندرية فقـابلهم قبيل الفجر بعض قبائل من عرب الاسكندرية (أولاد على) فتبادلوا معهم اطلاق النار واضطرت هذه القبائل الى التراجع أمام كثرة الفرنسيين ووفرة أسلحتهم .. واستمر الجيش الفرنسى فى السـير نحو الاسكندرية فقابلتهم حامية المدينة بما لديهم من وسائل الدفاع ولكن هيهات أن يصمد الاهالى بأسلحتهم العتيقة أمام أعتى الجيوش الاوربيـة وما تسلحت به من معـدات الدمار ، ودخل الفرنسيون المدينـة ينشرون الذعر والاضطراب ولكن الأهالى قابلوه بمزيد من العنف واعتصموا بالشوارع والأزقة ودارت بينهم وبين الفرنسيين معارك طاحنة اشترك فيها الرجال والنساء حتى كاد نابليون نفسه أن يلقى حتفه أثناءها واعتصم السيد محمد كريم بقلعة فاروس (قايتباى) يدافع فى يأس حتى اضطر الى التسليم وحاول نابليون أن يستفيد من خبرته فى ادارة المدينة والسيطرة عليها بعد أن عفا عنه تقديرا لبسالته وما أبداه من الشجاعة والفداء خلال الغزو .. وفى الوقت الذى تظاهر فيه السيد كريم بالتعاون مع الفرنسيين فى حكم المدينة كان يدبر خطط المقاومة الشعبية السرية مع أبناء الاسكندرية لعرقلة العمليات الحربية الفرنسية . ولما ساورت الشكوك الجنرال كليبر فى زعامة السيد محمد كريم لحركة المقاومة الشعبية أمر بالقبض عليه ونقله الى القاهرة فى ١٣ أغسطس سنة ١٧٩٨ وخير بين الاعدام رميا بالرصاص ومصادرة جميع أمواله وممتلكاته أو أن يدفع فدية ٣٠ ألف ريال فى ظرف ٢٤ ساعة ، وهنـا قال السيد محمد كريم

وهم يساومونه على حياته (اذا كان مقدرا على أن أموت فلا ينجينى من الموت أن أدفع هذا المبلغ ، واذا كان مقدرا على الحياة فعلام أدفع) .

ونفذ الفرنسيون الحكم فى السيد محمد كريم ٦ سبتمبر سنة ١٧٩٨ وحزوا رأسه وطافوا بها الشوارع .. وانطوت صفحة مشرفة سجل بها التاريخ أروع أمثلة البطولة والفداء فى أداء الواجب ارضاء لله والوطن والضمير .

الاسكندرية والثورة العرابية :

كانت دعوة الوزارة لاجتماع مجلس النواب دون أمر الخديوى توفيق بعد أزمة ٩ سبتمبر سنة ١٨٨١ تحديا للخديوى وبداية لتدخل انجلترا وفرنسا اللتين اعتبرتا هذه الدعوة لمجلس النواب تهديدا لمصالحهما الحيوية فى مصر وقررتا التدخل العسكرى بحجة حماية رعاياهما من أخطار متوقعة .

وأرسلت الدولتان بعد وصول أسطولهما الى الاسكندرية فى ١٩ مايو سنة ١٨٨٢ مذكرة تطلبان فيها اقالة الوزارة وابعاد أحمد عرابى عن البلاد .. وأصر الخديوى مستندا الى القوى الأجنبية على تنفيذ ما جاء بالمذكرة ولكن قوات الجيش والشرطة بالاسكندرية وقفت موقفا حازما من رغبة الخديوى فأرسلت برقية اليه مؤيدين بقاء عرابى ومهددين بأنه اذا مضت اثنتا عشرة ساعة ولم يعد الى منصبه أصبحوا غير مسئولين عما يترتب على هذا الرفض من نتائج .

وكانت لبرقية الاسكندرية أثرها الحاسم فى احجام الخديوى عن تنفيذ مطالب الدولتين .. وأن موقف الاسكندرية من تأييد عرابى فى بداية الثورة يذكرنا بموقفها من تأييد ثورة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ منذ يومها الأول .

مذبحة الاسكندرية :

أصبح وجود الأسطولين مبعثا لقلق أهل الاسكندرية وأثار

تدخلهما فى شئون البلاد التوجس والخوف من غدرهما واشتد الحنق بالأهالى لما جره الأجانب على البلاد من تدخل أجنبى وصار الأجانب يتوجسون شرا ولم يتورعوا عن اظهار روح العداوة ازاء أهل الاسكندرية بل وصل الأمر بالقنصلية الانجليزية الى توزيع الأسلحة والذخائر على رعايا انجلترا استعدادا لليوم المشئوم .. وتجمعت الغيوم فى سماء الاسكندرية وأصبح من الصعب تفادى الصدام بين الوطنيين والأجانب .

ولم يكن من الصدام بد وهو ما كانت تتوق اليه الدولتان... فقد حدث أن اختلف مكارى مصرى ومالطى على أجر حمار أدى الى وقوع شجار بينهما خر على أثره المصرى صريعا بسكين المالطى الذى أسرع بالهرب فى بيت أحد أصدقائه ، وثارت ثائرة الأهالى فتتبعوا القاتل وأطلق عليهم الأجانب النار من النوافذ والأبواب .. وكانت مذبحة ميدانها حى اللبان والجمرك واستمرت ثلاث ساعات سقط فيها الكثير من الأجانب واستشهد فيها بعض الوطنيين .

وأثارت الحادثة اهتمام قناصل الدول الأجنبية فعقدوا اجتماعا مع سلطات الأمن المسئولة بالاسكندرية ومحافظها وحضر أحد الضباط من البحرية الانجليزية لدراسة الموقف واتخاذ تدابير الرقابة والأمن وأصر ضباط الجيش المصرى بعدم تدخل الأسطولين على أن يتولوا وحدهم حفظ الأمن والنظام .

لم تستطع جميع التدابير التى اتخذت أن تسكن من وضع الأهالى أو الأجانب ولاحت نوايا انجلترا العدوانية مما أدى بقناصل الدول أن تنصح رعاياها بضرورة مغادرة البلاد فى ١٨ يونيو سنة ١٨٨٢ وغادر ما يقرب من ٩٩ ٪ من الأجانب الموجودين بمصر وكان هذا دليلا ماديا على أن الاسكندرية مقبلة على أيام عصيبة .

ضرب الاسكندرية :

وتطورت الأمور وأرسل الجنرال سيمور القائد الانجليزى انذاره النهائى فى ١٠ يوليو سنة ١٨٢٢ بضرب الاسكندرية فى

صباح اليوم التالى اذا لم تسلم اليه حصون الاسكندرية ورفض مجلس الوزراء الانذار حرصا على العرابيين والحركة القومية فى نفس الوقت وبدأ فى الاستعداد للحرب .

وفى تمام الساعة السابعة من صباح يوم ١١ يوليو سنة ١٨٨٢ ضرب الأسطول البريطانى الاسكندرية احدى عشرة ساعة متوالية ولم يفت فى عضد الجنود وأهالى الاسكندرية ما كان من تفوق العدو الساحق فاذا كانت تنقصهم الأسلحة والعتاد فلم يكن يعوزهم الايمان والشجاعة وقاموا بواجبهم بكل همة واخلاص ونشاط .

تفانى الأهالى فى الدفاع عن المدينة رغم أن الحرب كانت حرب مدافع وحصون وبوارج فبذلوا كل ما فى استطاعتهم من تضحية واقدام . قال الشيخ محمد عبده فى هذا الصدد :

كان الرجال والنساء تحت مطر الكلل ونيران المدافع ينقلون الذخائر ويقدمونها الى بعض بقايا الطوبجية الذين كانوا يضربونها ، وكانوا يغنون بلعن الأميرال سيمور .. ومن أرسله .

وقال عرابى فى ذلك : (وفى أثناء القتال تطوع كثير من الرجال والنساء فى خدمة المجاهدين ومساعدتهم فى تقديم الذخائر الحربية واعطائهم المال وحمل الجرحى وتضميد جروحهم ونقلهم الى المستشفيات) وقال محمود باشا فى كتاب البحر الزاخر (ورأيت فى ذلك الوقت بعينى ما حصل من غيرة الأهالى بجهة رأس التين وأم كبيبة وطوابى باب العرب وهمتهم فى مساعدة عساكر الطوبجية من جلبهم المهمات والذخائر وخراطيش البارود والمقذوفات هم ونساؤهم وأولادهم وبناتهم . والبعض من الأهالى صار يعمر المدافع ويضربها على الأسطول) .

وقد قتل من المصريين خلال هذه الفظائع نحو ألفين ولم تزد خسائر الانجليز عن خمسة من القتلى وتسعة عشر جريحا .

ويقـول عرابى فى مذكراته انه استشهد من رجال الطوابى وحـدهم مائة رجل وامرأتان من المتطوعات اللواتى كن يضمـدن الجرحى وهذا طبعا عدا الخسائر الأخرى فى المدينة ويصف جون تينيه عميـد الجالية السويسرية فى مصر سنة ١٨٨٢ ، الجنـود المصريين وهم يدافعون عن المدينة فيقول :

فما كان أبدع هذا المنظر ، منظر الرماة المصريين الذين كانوا قائمين على مدافعهم وهى مكشوفة فى العراء وكأنهم فى استعراض حربى لا يرهبون الموت الذى يكتنفهم ، اذ لم يكن لهم دروع واقية ـ ولا متاريس وكانت معظم الحصون بلا ساتر ومع ذلك فهؤلاء الشجعان من أبناء النيل كنا نلمحهم وسط الدخان الكثيف كأنهم أرواح الأبطال الذين سقطوا فى حومة الوغى ثم بعثوا ليكافحوا العدو من جـديد ويستهدفوا لنيران مدافعـه . وكان الأئمـة يزورون الحصون ويشجعون المقاومة وقام الجميع بواجبهم من جند ورجال ونساء وصغار وكبار ولم يكن ثمة أوسـمة ولا مكافآت تستحث أولئك الفلاحين على اداء واجبهم بل ان عاطفة الوطن والثورة على الفظائع التى استهدفوا لها كانت تستثير الحماسة فى صدورهم ، وهم أولئك الشجعان المجهولون الذين لم يفكر أحد فى آلامهم .

وهكذا كان دور الاسكندرية فى احدى معارك النضال القوى أدت فيها دورها بشـجاعة وأبدت ضروبا من البطـولة والفـداء ما يضرب به الأمثال فى كل وقت وحال واننا لا ننسى فى هذا المقام ولن تنسى مصر ابنا من أبناء الاسكندرية وهو عبد الله النديم الذى ولد بالاسكندرية عام ١٨٤٥ م ولقب بخطيب الثورة العرابية والذى كان يحرر صحيفة من ميدان المعركة فى الاسكندرية وكفر الدوار وكل موقعة حربية خاضتها الثورة العرابية .

كافح بالقلم واللسان حتى نال الكثير من الاضطهاد والتعذيب والتشريد وعنه يقول الأستاذ عبد الرحمن الرافعى « هذا الزعيم

الوحيد من العرابيين الذى استمر فى جهاده السياسى ونضاله عن مصر فى عهد الاحتلال وهى ميزة كبرى انفرد بها دون بقية الزعماء الذين أثرت فيهم الهزيمة فوهنت لها روحهم المعنوية وانطفأت فيهم شعلة الامل والحماسة والجهاد . أما هو فقد ظل على عهده واستمر يجاهد ويناضل حتى آخر نسمة من حياته » .

الاسكندرية وثورة ١٩١٩ :

أعلنت الحماية على مصر فى ٢٨ ديسمبر ١٩١٤ وفى ظل الأحكام العرفية زجت انجلترا بالوطنيين وخاصة من أعضاء الحزب الوطنى فى السجون وفى مدينة الاسكندرية ألقى القبض على الوطنيين ووضعوا فى سجن الحدراء وطوال فترة الحرب العالمية الأولى قاست مصر من وطأة الأحكام العرفية والحكم العسكرى القائم على العسف والبطش وكانت انجلترا تسخر جهود مصر لأغراضها الحربية ومصالحها الخاصة .

وطالب سعد زغلول هو وزملاؤه بالغاء هذه الأحكام بعد الحرب كما طالبوا بالاعتراف باستقلال البلاد ورفضت انجلترا هذه المطالب ثم ما لبثت أن قبضت عليه وعلى زملائه ونفتهم الى مالطة فقامت المظاهرات فى أنحاء البلاد احتجاجا على هذا الاجراء وحدث الصدام الحتمى بين الطلبة ورجال الاحتلال أسفر عن عديد من القتلى وقد قرر طلبة المعاهد الدينية والمدارس بمدينة الاسكندرية القيام بالاضراب يوم ١٢ مارس احتجاجا على سلطات الاحتلال وتجمعوا فى ميدان مسجد أبى العباس واتجهوا صوب مبنى المحافظة القديم بشارع رأس التين هاتفين بالحرية والاستقلال وقد تمكن البوليس من فض الأحزاب دون اراقة الدماء ولم تتوقف المظاهرات يوميا حتى كان يوم ١٧ مارس حين أحاط الجنود البريطانيون بمظاهرة تتألف من طلبة المعاهد الدينية والصناعية والثانوية ومن العمال بحى الأنفوشى ومنعوهم من

مواصلة السير فلم يتمكنوا فأطلقوا عليهم النيران وسقط ١٦ شهيدا وأربعة وعشرين جريحا وقد اذكت هذه التضحيات نار الحماسة فى نفوس الاهالى فكثرت المظاهرات عقب صلاة الجمعة من كل اسبوع وذهب ضحيتها خلق كثير وزج بهم فى غياهب السجون بتهمة اثارة الشعب .

وقد أرغمت هذه المظاهرات سلطات الاحتلال على اعادة النظر فى سياستها ازاء مصر — فأفرجت عن سعد زغلول وزملائه وسمحت لهم بالعودة كما قررت ايفاد لجنة ملنر الى مصر لدراسة أحوال البلاد ومطالبها داخل اطار الحماية البريطانية — وقد قاطع الشعب المصرى هذه اللجنة وعبرت الاسكندرية عن سخطها عليها .. فقام أهلها بمظاهرة فى ٢٤ أكتوبر عقب صلاة الجمعة من مسجد أبى العباس المرسى بلغ عددها ١٥ ألف .. سارت فى شوارع المدينة تهتف بالاستقلال وسقوط لجنة ملنر — واعترض رجال الشرطة طريقها ووصلت بعد لحظات فصيلة من الجيش الانجليزى انقضت على المتظاهرين واطلقت عليهم نيران البنادق فقتل خمسة وجرح أربعون وجرح من رجال الشرطة ثمانية وعشرون .

وقد استاء أهالى الاسكندرية من تدخل القوات الانجليزية وصمموا على الاستمرار فى المظاهرات وأخذوا يقيمون المتاريس فى الشوارع المؤدية الى حي رأس التين واقتلعوا بلاط الشوارع لإعاقة السيارات البريطانية من الوصول الى معاقل المتظاهرين واستمر الانجليز فى التحرش بالاهالى واثارتهم ففى يوم ٢٥ أكتوبر ١٩١٩ مرت سيارة انجليزية مسلحة بحى الأنفوشى وأطلقت النار على جمع من الأهالى بجهة البوصيرى فأصيب نحو عشرة منهم واشتبك الأهالى معها للدفاع عن أنفسهم فسقط منهم أربعة قتلى وستة جرحى وانتشرت فصائل القوات الانجليزية فى مختلف الشوارع وقامت السيارات المصفحة تجوب الطرقات بحثا عن

المتظاهرين وارهابا للأهالى — ولم يستطع محافظ الاسكندرية حسن عبد الرازق أن يقنع القوات الانجليزية بالانسحاب من الشوارع — فتجددت الاضطرابات وأعمال العنف وكان مسجد ابو العباس المرسى مركزا يتجمع فيه الأهالى من كافة أنحاء المدينة ويخرج المتظاهرون منه الى وسط المدينة ليلتقوا بجموع المتظاهرين الوافدين ولم تساعد الظروف السياسية التى تمر بالبلاد على الاستقرار أو تهدئة الأمور فقد أصدرت دار الحماية فى ١٤ نوفمبر سنة ١٩١٩ بلاغا رسميا أوضحت فيه أن لجنة ملنر مهمتها اقتراح النظام السياسى الذى سيطبق فى ظل الحماية وما أن علم السكندريون بهذا البلاغ صباح يوم ١٥ نوفمبر حتى قامت المظاهرات أيام ١٥ ، ١٦ ، ١٧ وتصدت لها القوات الانجليزية فسقط عدد من الشهداء .. وفى موكب رهيب يضم أكثر من خمسة عشر ألفا من المواطنين خرج الاهالى لتشييع جنازة الشهداء بين هتاف الجماهير وثورتهم على الدماء الذكية التى تراق كل يوم برصاص المستعمرين .. وفى صبيحة اليوم التالى وقد خرجت المظاهرات من مسجد أبى العباس وسارت فى طريقها المعهود إلى قلب المدينة فأطلقت عليهم النيران ، وفى المساء قام أهالى بباب سدرة وسوق الطباخين بقطع الاشجار وانتزاع أحجار الأرصفة لصنع المتاريس واغلاق الشوارع — وحدثت مصادمات أسفرت عن تسعة من القتلى وثلاثين من الجرحى ..

ونتيجة لخطورة الحاجة احتلت القوات الانجليزية المواقع الهامة بالمدينة وفرضت حظر التجول بعد التاسعة مساء وحرمت تشييع الجنازات فى مواكب كبيرة ..

وازاء اصرار المصريين على عدم الاعتراف بلجنة ملنر وأمام التضحيات الكبيرة التى قدمها المصريون خاصة أهالى الاسكندرية

اضطرت لجنة ملنر أن تعلن أنها لم تأت الى مصر الا للتوفيق بين أمانى الشعب المصرى ومصالح بريطانيا فى مصر مع عدم نسيان المحافظة على حقوق الأجانب .

الإسكندرية وثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢

منذ بداية عام ١٩٥٢ توالت الأحداث بسرعة فائقة فمن مظاهرات بالقاهرة واشعال الحرائق فى يناير بالقاهرة والاسكندرية واتخاذ الملك هذا فرصته لتشديد قبضته على البلاد باعلان الاحكام العرفية ، وتوالى الوزارات تباعا كل تحاول أن تصد تيار الغضب الشعبى وتهدىء ثائرة المواطنين وأصبح الموقف ينذر بانفجار وشيك . وفى ليلة الثالث والعشرين من يوليو انفجر البركان وخرجت قوات الجيش معبرة مؤيدة لثورة الشعب وكان الملك بالاسكندرية ورغم وجوده ووجود الوزارة بها فقد خرج أبناء الاسكندرية هاتفين بحياة الثورة منادين بنصرتها غير مبالين بما قد يحيق بهم من خطر وسارعت جامعة الاسكندرية وهى تمثل القيادة الفكرية فى المدينة وأبرقت الى قيادة الثورة مؤيدة لها وبعدها توالى التأييد من مختلف الهيئات والطوائف وأثبتت الاسكندرية أنها سباقة دائما الى مناصرة الحركات الوطنية وأنها لم تتخل عن ماضيها الطويل فى الكفاح والجهاد من أجل حرية الوطن .

ويرضخ الطاغية لقرارات الثورة بالتنازل عن العرش ومغادرة البلاد ويخرج من قصر رأس التين على باخرة المحروسة فيعود للأذهان منظر جده اسماعيل من قبل وقد خرج من نفس المكان وعلى نفس السفينة فى ظروف تكاد تكون متشابهة .

وهكذا كانت الاسكندرية أول أرض تطؤها أقدام أسرة محمد على ومنها شيعت آخر طغاتها .

ولقد شهدت الاسكندرية فى عهد الثورة أحداثا تاريخية توجت كفاحها على مر العصور وخلدت ذكراها . فمن ميدان المنشية بالإسكندرية أعلن السيد الرئيس جمال عبد الناصر فى السادس والعشرين من يوليو عام ١٩٥٦ قراره التاريخى الهام بتأميم الشركة العالمية لقناة السويس . فكان هذا أعظم حدث سياسى فى تاريخ مصر الحديثة أثار رد فعل عنيف فى الدوائر السياسية الأجنبية خاصة الفرنسية والانجليزية والامريكية .

وثارت ثورة الاستعمار وتحالفت قوى الشر والطغيان فكان العدوان الثلاثى الآثم على مصر . وتجلت بطولة الاسكندرية فى الدفاع عن الوطن وصد غارات المعتدين . وكان للمدفعية المضادة للطائرات والقوات البحرية دور تاريخى مشهود ، وقابل الأهالى غارات الطائرات بثبات ورباطة جأش وروح وطنية عالية فى تصميمه على بلوغ الهدف مهما تكبدوا من تضحيات وتقدم أبناء الاسكندرية فتيات وفتيان وشيوخ وشبان للانضمام الى جيش التحرير الوطنى تدفعهم الرغبة فى الانتقام من الأعداء والزود عن حياض الوطن .

وتحتل الاسكندرية فى قلب السيد الرئيس جمال عبد الناصر مكانا طيبا ، ففيها درج ، وابان دراسته فيها اشترك مع طلبتها فى ثورتهم على قوى البغض والطغيان ؛ ولذا يؤثرها دائما باعلان أهم القرارات التاريخية فى ٢٦ يوليو من كل عام ذكرى خلع الملك وطرده من مصر .

ومن هذا كله نرى أن الاسكندرية كانت بمثابة المرآة التى انعكست عليها أحداث مصر وتاريخها — فالاسكندرية تشغل من سجلها الضخم أغلب صفحاته .

وزارة الارشاد القومى

مصلحة الاستعلامات